

سورة الزمر

في مكة إلا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ فدييات ، وآياتها خمس وسبعون نزلت

بعد سبأ .

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إنه وصف القرآن في آخر سورة ص بقوله : « إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

لِلْعَالَمِينَ » ووصفه هنا بقوله : « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » .

(٢) إنه ذكر في ص أحوال الخلق من المبدأ إلى المعاد ، وذكر هنا مثله —

إلى نحو ذلك من وجوه للربط تظهر بالتأمل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَنْبُدُّهُمْ إِلَّا لِيُقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ

اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ

كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ

هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) .

الإيضاح

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) أي هذا الكتاب العظيم منزل من

عنده تعالى ، فهو الحق الذي لا مرية فيه كما جاء في آية : « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ

الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » وجاء في قوله : « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ . نَزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

وبعد أن بين شأن المنزل وأنه من عند الله — ذكر ما اشتمل عليه ذلك المنزل من الحق والعدل فقال :

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) أى إنا أنزلنا إليك القرآن أيها الرسول أمراً بالحق والعدل الواجب اتباعهما والعمل بهما .
ثم أمر رسوله بعبادته والإخلاص له فقال :

(فاعبد الله مخلصاً له الدين) أى فاعبده تعالى محضاً له الدين من شوائب الشرك والرياء على حسب ما أنزل الله في تضعيف كتابه ، وأعلم الناس أن العبادة لا تصلح إلا له وحده ، وأنه ليس له نِدٌّ ولا شريك .
ثم أكد هذا الأمر بقوله :

(ألا لله الدين الخالص) أى ألا لله العبادة والطاعة وحده لا شركة لأحد معه فيها ، لأن كل ما دونه ملكه ، وعلى المملوك طاعة ماله ، وفي حديث الحسن عن أبى هريرة « أن رجلاً قال يا رسول الله : إني أتصدق بالشئ وأصنع الشئ أريد به وجه الله وثناء الناس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفس محمد بيده ، لا يقبل الله شيئاً شورك فيه ، ثم تلا : (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) » .

وبعد أن أبان أن رأس العبادة الإخلاص لله — أعقب ذلك بدم طريق المشركين فقال :

(والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) أى والذين اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم ، يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا عند الله منزلةً ويشفعوا لنا عنده في حاجتنا .

ومن حديث عبادتهم للأصنام أنهم جعلوا تماثيل للكواكب ، والملائكة ، والأنبياء ، والصالحين الذين مضوا ، وعبدوها باعتبار أنها رمز إليها ، وقالوا إن الإله الأعظم أجل من أن يعبد البشر مباشرة ، فنحن نعبد هذه الآلهة وهي نعبد الإله الأعظم .

وهذه شبهة تمسك بها المشركون في قديم الدهر وحديثه ، وجاءت الرسل مفندة لها ماحية لها من الأذهان العالقة بها ، موجهة العقول إلى إفراد الله وحده بالعبادة كما قال : « وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » وقال : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » . قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم من ربكم ومن خالقكم ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا الله . فيقال لهم فلم تعبدونهم ؟ قالوا ليقر بونا إلى الله زلنى ويشفعوا لنا عنده ، فرد الله عليهم بقوله : « فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلَّ ضَلُّوا عَنْهُمْ » .

ثم هددهم وبين لهم عاقبة ما يفعلون فقال :

(إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون) أى إن الله يحكم بينهم وبين خصومهم وهم المحقون فيما اختلفوا فيه من التوحيد والإشراك يوم القيامة ، ويجازى كلا بما هو أهل له ، فيدخل المخلصين الموحدين الجنة ، ويدخل المشركين النار .

(إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) أى إن الله لا يرشد إلى الحق ولا يوفق إليه من هو كاذب مفتر عليه ، بزعمه أن له ولدا وأن له ندا وأن الأوثان تشفع لديه إلى غير ذلك من الترهات والأباطيل التى لا يقبلها العقل ولا تجد لها مستندا من نقل . ثم فصل ما كذبوا فيه فقال :

(لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء) أى لو أراد الله أن يتخذ ولدا - ولا ينبغى له ذلك - لما رضى إلا بأكل الأولاد وهم الأبناء ، فكيف نسبتهم إليه البنات ؟ .

ثم تزه سبحانه نفسه عن أن يكون له ولد فقال :
 (سبحانه هو الله الواحد القهار) أى تقدر الله أن يكون له ولد ، فإنه هو
 الواحد الأحد الفرد الصمد ، وكل ما سواه مفتقر إليه ، وهو الغنى عما سواه ، قهر
 الأشياء فدانت له ، وتسلط على الخلق بقدرته فذلت له ، تعالى عما يقول الظالمون
 علوا كبيرا .

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ
 النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ
 الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
 وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
 خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦)

شرح المفردات

التكوير فى الأصل : اللف والى من كاز العامة على رأسه وكورها ؛ والمراد
 يذهب الليل ويقضى مكانه النهار ، والعكس بالعكس ، وسخر الشمس والقمر جعلهما
 متقادين له ، والأجل المسمى : يوم القيامة ، والظلمات الثلاث : ظلمة البطن وظلمة
 الرحم وظلمة المشيمة ، تصرفون : أى يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه منزّه عن الولد بكونه إلهاً قهاراً ، وأن كل الخلق
 فى قبضته وسلطانه — أردف ذلك بما يدل على كمال قدرته بآياته التى أوجدها

في الأكوان ، وفي خلق الإنسان ، فبسط سلطانه على الشمس والقمر وذلهما وجعلهما
يجريان في ذلك اللسكوت الذى لا يعلم مداه إلا هو ، كما خلق الإنسان الأول وجعل
له زوجا من جنسه ، وخلق ثمانية أزواج من الحيوان ذكر وأثنى فكانت نواة التناسل
في هذه الأنواع ، فهل بعد هذا يجد العاقل متعديلا عن الاعتراف برؤيته ،
وعظيم قدرته .

الإيضاح

(خلق السموات والأرض بالحق) أى خلق هذا العالم الملوى على ما فيه من
بديع الصنع من شمس وأقمار ، تكوّن الليل والنهار ، والعالم السفلى المشتمل على
المواليد الثلاثة من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، وسخر كل ما فيه ظاهرا وباطنا
لانتفاع الإنسان فى سبيل معاشه إذا استعمل عقله واستخدم فكره فى استنباط
مراقبه — خلقهما على أكمل وجه ، وأبدع نظام ، قائمين على الحق والصواب ،
والحسك والمصالح .

و بعد أن أبان أنه خلقهما ذكر سبيل تصرفه فيهما فقال :

(يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل) أى يُغشي كلا منهما الآخر
كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس ، أو يجعلهما فى تتابعهما أشبه بتتابع أكوار
العمامة بعضها على بعض ، ألا ترى إلى الأرض وقد دارت حول نفسها وهى مكورة
فأخذ النهار الحادث من مقابلتها للشمس يسير من الشرق إلى الغرب ويلف حولها
طاويا الليل ، والليل من الجهة الأخرى يلتف حولها طاويا النهار ؛ فالأرض كالرأس
والظلام والضياء يتتابعان تتابع أكوار العمامة ، ويلتفان متتابعين حولها .

وفى هذا إيماء إلى كروية الأرض أولا ، وإلى دورانها حول نفسها ثانيا ،
فحكوير الأرض ظاهر الآيه ، ودورانها أى تابعا بالرمز والإشارة .

(وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) أى وجعل الشمس والقمر

وهما وسيلتا الليل والنهار منتقدين له (وأكثر مصالح العالم مرتبطة بهما) يجريان لمنتهى دورتهما ، ومنقطع حركتهما ، وهو يوم القيامة ، (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِ الْكُتُبِ) .

ثم ذيل الكلام بالجملة الآتية ترغيباً في طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص ، والتحذير من الكفر والمعاصي ، فقال :

(ألا هو العزيز الغفار) أى ألا إن الله الذى فعل هذه الأفعال ، وأنعم على خلقه بهذه النعم — هو القادر على الانتقام ممن عاداه ، الغفار لذنوب عباده التائبين . ولا يخفى ما فى هذا من الدلالة على كمال قدرته ، وكمال رحمته ؛ فهو القهار ذو القوة المتين ، الغفار لذنوب التائبين .

وبعد أن ذكر الدلائل التى تبها فى العالم العلوى — أردفها بذكر الدلائل التى أودعها فى العالم السفلى ، وبدأها بخلق الإنسان ، لأنه أعجب ما فيه ، لما فيه من العقل وقبولة الأمانة الإلهية ولله در من قال :

وتزعم أنك جرّم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

(خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجاً) أى خلقكم على اختلاف السننكم وألوانكم — من نفس واحدة وهى آدم ، ثم جعل من جنسها زوجاً وهى حواء ، ثم نثى بخلق الحيوان فقال :

(وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) أى وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهى التى ذكرها فى سورة الأنعام «ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ» أى ذكر وأنثى لكل منها . ثم ذكر سبيل خلق ما ذكر من الأناسى والأنعام فقال :

(بخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق) أى يتبدى خلقكم أينما الناس فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ، فيكون أحدكم أولاً نطفة ، ثم يكون علقة ،

ثم يكون مضغفة ، ثم يكون لحماً وعظماً وعصفاً ، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

(في ظلمات ثلاث) أى فى ظلمات أغشية ثلاثة جعلها المولى سبحانه وقاية للولد وحفظاً له من التعفن ، قال الدكتور عبد العزيز باشا إسماعيل فى كتابه [الإسلام والطب الحديث] : يعلمنا القرآن أن الجنين له ثلاثة أغشية سماها ظلمات : هى الغشاء المنبارى ، والغزبون ، والغشاء اللفائى ، وهى لا تظهر إلا بالشرح الدقيق ؛ وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة اه .

وبعد أن ذكر هذه الأفعال العجيبة ذكر موجدتها ومنشئها فقال :

(ذلكم الله ربكم) أى ذلكم العظيم الشأن الذى عددت أفعاله — هو الله مريكم فيما ذكر من الأطوار وفيها بعدها ، المستحق لتخصيص العبادة به سبحانه .
(له الملك) على الإطلاق فى الدنيا والآخرة .

(لا إله إلا هو) أى لا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له .

(فأتى تصرفون ؟) أى فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها ، وانتفاء ما يصرف عنها — إلى عبادة غيره سبحانه من غير داع إليها مع كثرة ما يصرف عنها .

والخلاصة — كيف تعبدون معه سواه ؟ أين ذهبت عقولكم ؟ وكيف ضاعت أعلامكم ؟

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ إِنَّكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)
وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ لَبِيَ

مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ اللَّهُ آتِدَادًا لِلْبُضِلِّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ
بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨)

شرح المفردات

منيبا : أى راجعا إليه مطيعا له ، خوؤه ملكه ؛ وأنشد أبو عمرو بن العلاء لزهير
ابن أبي سلمى :

هناك إن يُستخوئوا المال يحوئوا وإن يسأؤا يعطوا وإن ينسروا يقنؤا

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على وحدانيته تعالى وذكر أن المشركين عبدة الأصنام
لادللهم على عبادتها ، وكان عقولهم قد ذهبت حين عبدوها — أعقب ذلك بيان
أنه هو الغنى عما سواه من المخلوقات ، فهو لا يريد بعبادته جر منفعة ولا دفع مضرة ،
ولكنه لا يرضى الكفر لعباده ، بل يرضى لهم الشكر ، وأن كل نفس مطالبة
بما عملت ، وبعدئذ تردّ إلى عالم الغيب والشهادة فيجازيها بما كسبت ، ثم أتبعه
بذكر تناقض المشركين فيما يفعلون ، فإذا أصابهم الضر رجعوا في طلب دفعه إلى الله ،
وإذا ذهب عنهم عادوا إلى عبادة الأوثان ، وقد كان العقل يقضى بأنهم وقد علموا
أنه لا يدفع الضر سواه — أن يعبدوه في جميع الحالات ، ثم أمر رسوله أن يقول لهم
متهمكا موبخا تتمموا بكفركم قليلا ثم مصيركم إلى النار وبئس القرار .

الإيضاح

(إن تكفروا فإن الله غنى عنكم) أى إن تكفروا به سبحانه مع مشاهدة ما يوجب
الإيمان والشكر فإن ذلك لا يضره شيئا ، فهو الغنى عن سائر المخلوقات كما قال تعالى
حكاية عن موسى : «إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ»

وجاء في صحيح مسلم « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا » .

ثم ذكر ما يحبه سبحانه وما يكرهه فقال :

(ولا يرضى لعباده الكفر) أى لا يحبه ولا يأمر به ، لأنه مانع من ارتقاء النفوس البشرية بجملها ذليلة خاضعة للأرباب المتعددة والمعبودات الحقيرة من الخشب والنصب ومن يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .

(وإن تشكروا يرضه لكم) لأنه على مقتضى السنن القويم ، والصرط العادل المستقيم كما قال : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

ثم ذكر أن كل إنسان يوم القيامة يجازى بما قدم من عمل ولا يضيره عمل سواه فقال :

(ولا ترز وازرة وزر أخرى) أى ولا تحمل أى نفس أوزار نفس أخرى ، بل كل مطالب بعمل نفسه خيرا كانت أو شرا .

ثم بين أن جزاء المرء فى الآخرة على وفق ما عمل فقال :

(ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم مصيركم يوم القيامة إلى خالقكم البصير بأمركم العليم بالسر والنجوى ، فيخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا ، إذ لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، ثم يجازى المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، فأحذروا أن تلقوا ربكم وقد عملتم فى الدنيا ما لا يرضاه فتهلكوا .

ثم بين أن هذه المجازاة ليست بالمسيرة عليه سبحانه فقال :

(إنه عليم بذات الصدور) أى إنه تعالى محص جميع أعمالكم حتى ما تضره صدوركم مما لا تدرکه أعيانكم ، فكيف بما رآته العيون وأدرکه الأبصار .

ثم بين سبحانه شأن الكافر بالنسبة إلى ربه فقال :

(وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمه منه نسى ما كان

يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله) أى وإذا أصاب الكافر بلاء في جسده أو شدة في معيشته أو خوف على حياته — استغاث بربه الذى خلقه ورغب إليه في كشف ما نزل به ، تائباً إليه مما كان عليه من قبل ذلك من الكفر به وإشراك الآلهة والأوثان في عبادته ، ثم إذا منحه نعمة منه فأزال ما به من ضرر ، وأبدله بالسقم صحة ، وبالشدّة رخاء — ترك دعاءه الذى كان يدعو من قبل أن يكشف ما كان به من ضرر ، فجعل لله شركاء وأضل الناس ومنهم من توحيده والإقرار به والدخول في الإسلام .

ثم أوعده وهدده على ما فعل فقال :

(قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار) أى قل أيها الرسول لمن فعل ذلك : تمتع بما أنت فيه من زخرف الدنيا ولذاتها، منصرفاً عن النظر إلى أدلة التوحيد التى أوجدها الله فى الأكوان ، وجعلها فى نفس الإنسان ، زمناً قليلاً إلى أن تستوفى أجلك ، وتأتيك منيتك ، ثم أنت بعد ذلك من أصحاب النار المخلدين فيها أبداً .

أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩)

شرح المفردات

القانت : القائم بما يجب عليه من الطاعة ، آتاء الليل : ساعاته واحدها آن ، يحذر الآخرة : أى يخشى عذابها .

المعنى الجملى

بعد أن أبان صفات المشركين الضالين، وذَكَرَ تعلقهم واضطرابهم فى العبادة ، إذ يرجعون إلى الله فى وقت الشدة ويعودون إلى الأوثان حين الرخاء — أردفه بذكر

أحوال المؤمنين القانتين الذين لا يعتمدون إلا على ربهم ، ولا ينيبون إلا إليه ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه .

الإيضاح

(أم من هو قانت آباء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه)
 أى أنت أيها المشرك أحسن حالا وما لا أم من هو قائم بأداء الطاعات ، ودائب على وظائف العبادات ، في ساعات الليل التي تكون فيها العبادة أشق على النفوس ، وأبعد من الرياء ، فتكون أقرب إلى القبول ، وهو في حال عبادته خائف راج ؟
 لاشك أن الجواب لا يحتاج إلى بيان .

والخلاصة — أمن هو مطيع كمن هو عاص ؟ إنهما لا يستويان .
 ثم أكد نفي التساوى ونبه إلى فضيلة العلم وشرف العمل به فقال :
 (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟) أى قل أيها الرسول لقومك هل يستوى الذين يعلمون ما لهم في طاعة ربهم من الثواب ، وما عليهم في معصيتهم إياه من عقاب ، والذين لا يعلمون ذلك ، فهم يخطون خبط عشواء لا يرجون بحسن أعمالهم خيرا ، ولا يخافون من سيئها شرا .

وجاء هذا الكلام بأسلوب الاستفهام للدلالة على أن الأولين بلغوا أعلى معارج الخير ، وأن الآخرين درجوا في دركات الشر ، ولا يخفى ذلك على منصف ولا مكابر .

ثم بين أن ما سلف إنما يفهمه كل ذى لب ، فأمثال هؤلاء على قلوبهم غشاوة لا يفقهون موعظة ، ولا تنفع فيهم التذكرة فقال :

(إنما يتذكر أولو الألباب) أى إنما يعتبر بحجج الله ويتعظ بها ويتدبرها أهل

العقول والحجا ، لا أهل الجهل والغفلة .

والخلاصة — إنه إنما يعلم الفرق بين هذا أو ذاك من له لب وعقل يتدبر به .

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)
 قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
 أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ
 عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ
 قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ
 هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ
 ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) .

المعنى الجملى

بعد أن نفى المساواة بين من يعلم ومن لا يعلم — أردفه بأمر رسوله أن ينصح المؤمنين بجملة نصائح :

(١) تقوى الله وطاعته لما فى ذلك من جزيل الفوائد ، فإذا تعذرت طاعته فى بلد تحولوا عنه إلى بلد يتمكنون فيه من الاشتغال بالعبادة والطاعة كما فعل كثير من الأنبياء ، ولهم كفاء ذلك أجر بغير حساب ، فلا يقدر بمكيال ولا ميزان .

(٢) إنه أمر بعبادة الله وحده مخلصاً له الدين ، وقد قال كفار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : ما يحملك على هذا الدين الذى أتيتنا به ؟ ألا تنظر إلى ملة أبينا إبراهيم وجدك ، وسادات قومك يعبدون اللات والعزى ؟ فأنزل الله الآية وأمره أن يكون أول المسلمين ، وفى ذلك تنبيهه إلى كونه رسولا من عند الله واجب الطاعة .

(٣) إنه أمر أن يقول لهم : إني أخاف عذاب يوم القيامة إن عصيته ، وفى ذلك إيماء إلى زجر غيره عن المعاصى .

- (٤) إنه أمر أن يذكر لهم أن الخاسر هو الذى يخسر نفسه ويخسر أهله ، لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا يرجوع بعده .
- (٥) وصف لهم النار وأنها تحيط بهم من كل جانب ، وهذا من أفظع أنواع العذاب التى يخوف بها عباده .

الإيضاح

(قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم) أمر سبحانه رسوله أن يعظ المؤمنين ويحلمهم على الطاعة والتقوى باجتنباب معاصيه واتباع أوامره .
ثم علل وجوب الامتثال بقوله :

(للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) أى لمن أحسن فى هذه الدار ، وعمل صالح الأعمال ، وزكى نفسه فيها — حسنة من حجة وعافية ونجاح فى الأعمال التى يزاولها كفاء ما يتحلى به من تمسك بأداب الدين واتباع فضائله ، وحسنة فى الآخرة فيتمتع بجنات النعيم ورضوان الله عنه « وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » .

ثم رغبهم فى الهجرة من مكة إلى المدينة وصبرهم على مفارقة الأوطان فقال :
(وأرض الله واسعة) أى إنكم إذا لم تتمكنوا من التوفر على الإحسان والتقوى وصرف الهمم إلى العبادة فى البلد الذى أنتم فيه فتحولوا عنه إلى بلاد تستطيعون فيها ذلك ، واجعلوا أسوتكم الأنبياء والصالحين فقد فعل كثير منهم ذلك .
ثم ذكر ما لهم من رفيع المنزلة وعظيم الأجر على ذلك فقال :

(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) أى ولهم على صبرهم أجر عظيم عند ربهم لا يقدر قدره ، كما وفى من قبلهم أجورهم على هذه الشاكلة . وعن الحسين ابن على رضى الله عنهما قال : سمعت جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« أَدَّ الْفَرَائِضَ تَكُنْ مِنْ أَعْبَادِ النَّاسِ ، وَعَلَيْكَ بِالْقَنُوعِ تَكُنْ مِنْ أَغْنَى النَّاسِ ، يَا بَنِي

إن في الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى ، يوتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، يصب عليهم الأجر صباً ثم تلا : (إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) قال النحاس : من صبر على المعاصي يقال صابر ، ومن صبر على المصيبة يقال صابر على كذا .

ثم ذكر ما أمر به نبيه من الإخلاص في الطاعة فقال : (قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مَخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) أى قل أيها الرسول لمشركي قومك : إن الله أمرني أن أعبد مفرداً له الطاعة دون كل ما تدعون من دونه من الآلهة والأنداد . وفى هذا نعى لهم على تماديهم في عبادة الأوثان ، والكلام عليه من وادى قولهم (إياك أعنى واسمعى يا جاره) .

(وأمرت لأن أكون أول المسلمين) أى وأمرت أن أكون أول المسلمين وسابقتهم في إخلاص التوحيد لله ، وإخلاص العبادة له ، والبراءة من كل ما دونه من الآلهة .

(قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) أى قل لهم : إني أخاف إن عصيت ربي بترك الإخلاص له أو إفراده بالربوبية — عذاب يوم القيامة الكثير الأهوال والآلام . وفى هذا من التعريض بهم ما لا يخفى .

(قل الله أعبد مخلصاً له ديني . فاعبدوا ما شئتم من دونه) أى قل لهم : الله أعبد لا غيره لا استقلالاً ولا اشتراكاً ، مخلصاً له عبادتى مبتعداً من الشرك والرياء ، فاعبدوا ما شئتم أن تعبدوه من دونه من الأوثان والأصنام ، وستعلمون وبال عقابكم حيناً تلقون ربكم .

وفى هذا تهديد ووعيد شديد : (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) أى قل لهم

أيها الرسول : إن الخسران الذي لا خسران بعده — هو خسران النفس وإضاعتها بالضلال ، وخسران الأنبياء الذين أضلّوهم وأوقعوهم في العذاب السرمدي يوم القيامة إذ أوقعوهم في هلكة ما بعدها هلكة .

(الأوّل ذلك هو الخسران المبين) أي هذا هو الخسران المبين الظاهر لسكّال هوله ، وفضاعة شأنه .

ثم فصل ذلك الخسران وبينه بعد إيهامه تهويلا وتعظيما لأمره فقال :

(لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتمهم ظلل) أي لهم أطباق متراكمة من النار بعضها فوق بعض كأنها ظلل ، ومن تحتمهم مثلها ، والمراد من ذلك أن النار محيطة بهم من كل جانب .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ يَفْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » .
وقوله : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » .

(ذلك يخوف الله به عباده) أي إنما يقص عليك ربكم خبر ما سيكون لا محالة ، يزدجر عباده عن المحارم والآثام .

بعد هذا أمرهم بتقواه وحذرهم من عصيانه فقال :

(يا عباد فاتقون) أي يا عبادى بالغوا في الخوف والحذر والتقوى ، ولا تترضوا لما يوجب سخطي ، وهذه مئة منه تعالى منظوية على نهاية اللطف والرحمة .

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى
فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ
هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ
أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ مِنْ

فَوَقَّهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ
الْمِيعَادَ (٢٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه وعيده لعبدة الأصنام — أردف ذلك وعد من اجتنبوا
عبادتها وبعثوا عن الشرك ، ليكون الوعد مقترنا بالوعيد ويحصل بذلك كمال
الترهيب والترغيب .

الإيضاح

(والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوإ إلى الله لهم البشرى) الطاغوت:
الشیطان، ويطلق على الواحد والجمع ، وسميت عبادة الأوثان عبادة للشیطان ، إذ كان
الآمر بها والملزین لها .

أى والذين اجتنبوا عبادة الأصنام وأقبلوا إلى ربهم معرضين عما سواه — لهم
البشرى بالثواب العظيم من الله على السنة رسله حين الموت وحين يحشرون من
قبورهم للحساب .

ثم مدحهم بأنهم نقاد في الدين يميزون بين الحسن والأحسن ، والفاضل
والأفضل فقال :

(فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) أى فبشر هؤلاء الذين
اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وأنابوإ إلى ربهم وسمعوا القول فاتبعوا أولاه بالقبول
وأرشدته إلى الحق — بالنعم المقيم فى جنات النعم .

(أولئك الذين هدهم الله) أى هؤلاء هم الذين وفقهم الله للرشاد وإصابة
الصواب ، لالذين يعرضون عن سماع الحق ، ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع .
(وأولئك هم أولو الأبواب) أى وأولئك هم أصحاب العقول السليمة ، والفطر

المستقيمة ، التى لاتطيع الهوى ولا يفلها الوهم ، فتختار خير الأمرين فى دينها ودنياها .
روى أن هاتين الآيتين نزلتا فى ثلاثة نفر : زيد بن عمرو وأبى ذر الغفارى وسلمان
الفارسى ، كانوا فى الجاهلية يقولون « لا إله إلا الله » .

ثم بين أصداد المذكورين أولا وسجل عليهم الحرمان من الهداية فقال :
(أمن حق عليه كلمة العذاب ؟ أفأنت تنقذ من فى النار؟) أى أنت مالك شئون
الناس ومصرف أمورهم ، فمن حقت عليه كلمة العذاب لعدم أهليته للكمال وتدسيته
نفسه بولوغها فى الآثام والمعاصى — فأنت تنقذه من النار؟ — كلا ، ليس أمرهم إليك
بل أمرهم إلى ربهم يجازيهم بحكمته وعدله .

ثم أعاد جزاء المتقين عناية بأمرهم بعد ذكر أصدادهم فقال :

(لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها
الأنهار) أى لكن الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه ، واجتناب محارمه ، لهم فى الجنة
غرف طباق فوق طباق ، مبنيات محكمات تجري الأنهار خلال أشجارها .

ثم أكد حصول ذلك لهم فقال :

(وعد الله لا يخلف الله الميعاد) أى وعد الله هؤلاء المتقين بذلك ، ووعد
الحق ، فهو لا يخلف ما وعدهم ، بل ينفى بوعدده .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ
ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ قَتَرًا مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) .

شرح المفردات

فسلكه : أى فأدخله ، ينابيع : أى عيوننا ومجارى ، ألوانه : أى أنواعه وأصنافه
يهيج : أى يحف ، حطاما : أى فتاتا متكسرا .

المعنى الجملى

بعد أن وصف جلت قدرته الآخرة بصفات توجب الرغبة فيها ومزيد الشوق إليها — أعقب ذلك بذكر صفات للدنيا توجب النفرة منها كسرعة زوالها وتقضيها وشيكا، تحذيرا من الاعتزاز بزهرتها ، والركون إلى لذتها ، فقلَّ حالها بحال نبات يسقى بماء المطر فيخرج به زرع مختلف الأصناف والأنواع ، وبعد قليل تراه يجف ويصير فتاتا متكسرا ، فما أسرع زواله ، وأيسر تقضيه .!

الإيضاح

إنك أيها الرسول لتشهد الماء وقد نزل من السماء فخرى عيوننا في الأرض فسقيت به أنواع مختلفة من النبات من بُرٍّ إلى شمير إلى أرز إلى نحو ذلك ثم نضجت وجفت وصارت مصفرة بعد خضرة ونضرة ثم صارت فتاتا متكسرة ، فما أشبه حال الدنيا بحالها فهي سريعة التقضى وشيكة الزوال ، فليعتبر بذلك أولو الحجا ، وليعلموا أن الدنيا كسوق قام ثم انفض ، ولا يغتروا ببهجتها ولا يفتنوا بزخرفها .

ونحو الآية قوله : « وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاتَّخِذُوا بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا » .

أَقْنِ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ
لِلْقَاسِمَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُوْائِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللَّهُ تَزَلَّ
أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ

مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِّ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ
 الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤)
 كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥)
 فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْحِزْبَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
 يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا غَيْرَ بَيِّنًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) .

شرح المفردات

شرح الصدر للإسلام : الفرح به والطمأنينة إليه ، والنور : البصيرة والهدى ،
 والقسوة : جمود وصلابة في القلب ؛ يقال قلب قاسٍ : أى لا يرق ولا يلين ، أحسن
 الحديث : هو القرآن ، متشابهها : أى يشبه بعضه بعضا في الحسن والأحكام ، مثانى :
 واحدها مثنى من التثنية : أى التكرير ، تقشعر : أى تضطرب وتتحرك وتشمز ، تلين
 أى تسكن وتطمئن ، الحزبى : الذل والهوان ، يتذكرون : أى يتعظون ، غير
 ذى عوج : أى لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ، قال :

وقد أتماك يقينٌ غير ذى عوجٍ من الإله وقولٌ غيرٌ مكذوبٍ

المعنى الجملى

بعد أن بالغ في ذكر ما يدل على وجوب الإقبال على طاعته سبحانه والإعراض عن
 الدنيا — أردف ذلك ببيان أنه لا ينتفع بهذا إلا من شرح الله صدره ونور قلبه
 وأشعر نفسه حب العمل به ، ثم أعقبه بذكر أن من أضله الله فلا هادى له ، وأن
 من يتقى بيديه الخواف صيانة لوجهه عن النار ليس حاله كحال من هو آمن لا يفكر

في مآل أمره ، وعاقبة عمله ، وبعثذ ذكر أن هؤلاء المشركين ليسوا بدعا في الأمم ،
فلقد كذب كثير قبلهم فاتاهم العذاب بغيثة من حيث لا يشعرون ، فأصيبوا في الدنيا
بالذل والصغار والقتل والخسف ، ولعذاب الآخرة أشد نكالا ووبالا ، ثم ذكر أن
القرآن قد ضرب الأمثال للناس لعلمهم يرعون ويتذكرون ، بلسان عربي مبين
لعلمهم يتقون .

الإيضاح

(أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ؟) أى أفمن دخل النور
قلبه فانتشرح للإسلام لما رأى فيه من البدائع والمعائب المهيثة للحكمة ، المهدة لقبول
الحق والموصلة إلى الرشاد — كمن طبع على قلبه لغفاته وجهالته ؟ وقد روى أن
علامة ذلك الانسراح الإجابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد
للموت قبل حلول الموت .

والخلاصة — هل يستوى من أثار الله بصيرته ومن هو قاسى القلب بعيد

من الحق ؟

ونحو الآية قوله : « أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ
فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا » .

قال ابن عباس : من شرح الله صدره للإسلام أبو بكر الصديق رضى الله عنه ،
وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : « تلا النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية
فقلنا يا نبي الله كيف انسراح صدره ؟ قال إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح ،
قلنا : فما علامة ذلك يا رسول الله ؟ قال : الإجابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار
الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت » . وأخرج الترمذى عن ابن عمر « أن رجلا
قال يا رسول الله : أى المؤمنين أكيس ؟ قال أكرمهم ذكرا للموت ، وأحسنهم له
استعدادا ، وإذا دخل النور في القلب انفسح واستوسع ، فقالوا ما آية ذلك

يا نبي الله ؟ قال الإجابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت .

ثم ذكر ما يدل على المحذوف الذي قدر في الجملة السالفة فقال :

(فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) أى فالويل أشد الويل لمن قست قلوبهم من أجل ذكر الله الذى من حقه أن تلين منه القلوب ، فهم إذا ذكر الله عندهم وذكرت دلائل قدرته وبدائع صنعه اشمأزوا من ذلك وزادت قلوبهم قسوة .

قال مالك بن دينار : ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب ، وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة . وأخرج الترمذى عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى » .

وعن أبي سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى : اطلبوا الخواجج من السمحاء فإني جمعت فيهم رحمتى ، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإني جمعت فيهم سخطى » .

ثم بين حالهم فقال :

(أولئك فى ضلال مبين) أى أولئك القساة القلوب الذين أعمى الله أبصارهم فى غواية ظاهرة لكل أحد لا تحتاج إلى عناء فى تفهم حقيقتها ومعرفة كنهها .
و بعدئذ وصف القرآن الذى يشرح الصدر ويلين القلب فقال :

(الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أى الله أنزل أحسن الحديث قرآنا كريما يشبه بعضه بعضا فى الصدق والبيان والوعظ والحكمة ، كما تشابه أجزاء الماء والهواء وأجزاء النبات والزهر ، مُتَنَتْنِي وتردد قصصه وأنبأؤه ، وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيدته ، وإذا تليت منه آيات العذاب اقمشرت الجلود ، ووجلت القلوب ، وإذا تليت آيات

الرحمة والوعد لانت الجلود ، وسكنت القلوب ، واطمأنت النفوس . قال الزجاج :
إذا ذكرت آيات العذاب اقتشعت جلود الخائفين لله .

(ذلك هدى الله يهدي به من يشاء) أى ذلك الكتاب يهدي به الله من يشاء
ويوفقه للإيمان .

(ومن يضل الله فاله من هاد) أى ومن يخذله الله عن الإيمان بهذا القرآن
والتصديق به ، فاله يُخرج من الضلالة ، ولا موقف لسلك طريق الحق . ثم ذكر
علة ما تقدم من تبين حال المهتدى والضال فقال :

(أفن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) أى أكل الناس سواء ؟ فن شأنه
أن يتقى بوجهه الذى هو أشرف أعضائه العذاب الشديد السبي يوم القيامة ، (لأن
يده التى كان يتقى بها المكاره فى الدنيا مغולה إلى عنقه) ، كمن هو آمن لا يعتره
مكروه ، ولا يحتاج إلى اتقاء محذور مخوف .

ثم ذكر ما ينال الكفار والعاصين من الإهانة فى ذلك اليوم فقال :

(وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون) أى وقيل تهكما واستهزاء لمن ظلموا
أنفسهم بالشرك والمعاصى — ذوقوا وبال ما كسبتم فى الدنيا ، ودسيتم به أنفُسكم حتى
أوقمتموها فى الهاوية ، النار الحامية .

ثم ذكر ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى إثر بيان ما يصيب الجميع
من العذاب الأخرى فقال :

(كذب الذين من قبلهم فاتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . فأذاقهم الله
الغزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) أى إن بعض الأمم
للماضية التى كذبت رسلها أتاها العذاب بنتة . من حيث لا تحسب ولا يخطر لها بالبال ،
فلحقها الذل والصغار فى الحياة الدنيا ، فأصبحت تارة بالمسخ وأخرى بالخسف وثالثة
بالتقتل أو السبي أو نحو ذلك من ضروب النكال والوبال ، وإن عذاب الآخرة لأنكى
عاقبة وأشد أثراً لو علموا ذلك واعتبروا به .

ثم بين أن فيما قصه القرآن عليهم من الأمثال والمواعظ عبرة لهم لو كانوا يعقلون . فقال :

(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون . قرآنًا عربيًا غير ذي عوج لعلمهم يتقون) أى ولقد مثلنا لهؤلاء المشركين بالله أمثال القرون الخالية تخويفًا لهم وتحذيرًا ، ليتعظوا ويزدجروا ويقلموا عما هم عليه مقيمون من الكفر بربهم ، بكلام عربي لا لبس فيه ولا اختلاف ، ليفهموا ما فيه من مواعظ ، ويعتبروا بما فيه من حكم ، فيتقوا ما حذرهم فيه من بأسه وسطوته ، وينيبوا إليه ويفردوه بالعبادة ، ويتبرءوا من الآلهة والأنداد .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا
لِرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ، الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)
إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ
تَخْتَصِمُونَ (٣١) .

شرح المفردات

ضرب المثل : تشبيه حال عجيبة بأخرى وجعلها مثلها لها ، متشاكسون : أى مختلفون يتنازعون لسوء طباعهم وشكاسة أخلاقهم ، سلمًا رجل : أى خالصا لسيد واحد ، والميت (بالتشديد) من لم يموت وسيموت ، والميت (بالتخفيف) من قد مات وفارقت الروح ، قال الخليل أنشد أبو عمرو :

وتسألني نفسي مَيِّتٍ ومَيِّتٍ فدونك قد فسرت إن كنت تعقل
فإن كان ذا روحٍ فذلك مَيِّتٍ وما الميت إلا من إلى القبر يُحْمَلُ
تختصمون : أى تحتكمون للقضاء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الحكمة في ضرب الأمثال للناس ، وهي أن تكون عظة وذكري لهم ليتقوا ربهم ، ويرعوا عن غيهم وضلالهم — أردفه بذكر مثل يرشد إلى فساد مذهب المشركين وقبح طريقتهم ووضوح بطلانها ، ثم أعقبه ببيان أن الناس جميعاً سيموتون ثم يمرضون على ربهم ، وهناك يستبين الحق والمبطل ، والضال والمهتدى ، فلا داعى إلى الجدل والخلاف بينك وبينهم .

الإيضاح

(ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء مدشاً كسبون ورجلاً سلماً لرجل ، هل يستويان مثلاً؟) أى ضرب الله مثلاً لقومك وقال لهم : ماذا تقولون في عبد مملوك قد امتلكه شركاء ، بينهم اختلاف وتنازع ؛ فهم يتجادون في حاجهم وهو حائر في أمره إذا هو أَرْضَى أحدهم أغضب الباقين ، وإذا احتاج إليهم في مهمّ رده كل منهم إلى الآخرين ، فهو في عذاب دائم وتعب مقيم ، ومملوك آخر له مخدوم واحد يخدمه مخلصاً وهو يعينه على مهماته ، ويقضى له سائر حاجاته ، فأى العبدین أحسن حالاً وأحمد شأنًا؟ — الجواب لا يحتاج إلى بيان — هكذا حال المشرك الذى يعبد آلهة شتى يبقى ضالاً حائراً لا يدري أىّ تلك الآلهة يعبد؟ ولا على أيهم يعتمد؟ ومن يطلب رزقه؟ ومن يلتمس رفته؟ أما من لم يثبت إلا إلهاً واحداً فهو قائم بما كلفه ، عارف ما يرضيه وما يسخطه — لا شك أن البون بين حالهما شاسع .

وقوله (هل يستويان مثلاً) أى هل تستوى صفتاهما وحالاهما؟ .

(الحمد لله) أى بعد أن بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد ، وثبت أن

لا إله إلا هو — ثبت أن الحمد لله لاغيره .

(بل أكثرهم لا يعلمون) أى بل أكثر الناس لا يعلمون أن الحمد له لاغيره

فبشركوا به سواه .

ولما لم يلتفتوا إلى الحق ولم ينتفعوا بضرب المثل ، أخبر سبحانه بأن مصير الجميع إلى الله ، وأنهم يختصمون يوم القيامة بين يديه وهو الحكم العدل ، وهناك يتميز الحق من المبطل قال :

(إنك ميت وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) أى إنك ستموت وهم سيموتون ثم تختصمون عند ربكم ، فتحتج أنت عليهم بأنك قد بلغت فكذبوا ، ويعتذرون هم بما لا طائل تحته ، وبما لا يدفع عنهم لوما ولا تقرعيا ، ويقول التابعون للرؤساء : أظعنناكم فأضالتمونا ، ويقول السادة : أغوانا الشيطان وأباؤنا الأولون .

عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كان عنده مظلمة لأخيه من عرض أو مال فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » رواه البخارى .

وعن أبى هريرة قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون من المُفلسُ ؟ قالوا المُفلسُ فينا من لادرم له ولا متاع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المُفلس من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار » أخرجه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : لما نزلت هذه الآية كنا نقول : ربنا واحد ، وديننا واحد ، ونبينا واحد ، فما هذه الحصومة ؟ فلما كان يوم صعبين ، وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا .

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ووقفنا لما فيه رضاك .

ثم هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة لثلاث بقين من ذى القعدة من سنة أربع وستين وثلاثمائة وألف هجرية ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .